دراسات الأدب المعاصر، السنة الثامنة، صيف ۱۳۹۵، العدد الثلاثون: صص۱۲۳-۱۴۰

الطبيعة بين الأدب القديم والحديث

محبوبه بادرستانی *
ليلا حسينی **

تاريخ الوصول: ۹۴/۱۲/۱۸
تاريخ القبول: ۹۵/۳/۲۸

الملخّص

تقوم هذه المقالة إلى الموازنة بين *امرئ القيس* و*ابن حمديس الصقلی* فی وصف الطبيعة بهدف معرفة المظاهر التی قام الشاعران فی الأدب الجاهلی والأدب الأندلسی بوصفها من الطبيعة والسؤال الأساسی فيها هو ما هی المظاهر المشرقة التی قام بوصفها *امـرؤالقيس* و*ابن حمديس* فی الطبيعة رغم أنهما يعيشان فی العصرين المختلفـين؟ وعنـدنا فرضـية يمكننا الوصول إلى الإجابة وهی الطبيعة التی قام بوصفها *امرؤالقيس* هی المطر والسيول والأزهار والليل وهذا النوع من الطبيعة ملائم بالبيئة التی كان يعـيش *امـرؤالقيس* فيهـا و*ابن حمديس* قام بوصف الزهريات الموجودة فی بـلاده والمائيـات كنمـوذجين؛ يمكـن القول أنّ كل شاعر قام بوصف مشاهداته فی بيئته.

الكلمات الدليلية: شعر الطبيعة، الطبيعة، امرؤالقيس، ابن حمديس.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

* طالبة الدكتورا بجامعة الخوارزمی، طهران، ايران. mahboobeh_58b@yahoo.com
** طالبة الدكتورا بجامعة الخوارزمی، طهران، ايران. l7.hoseynii@gmail.com
الكاتبة المسؤولة: محبوبه بادرستانی

المقدمة

إنّ اهتمام الشعراء العرب بالطبيعة منذ القديم أی العصر الجاهلی إلی العصر الحـديث، يدفع الباحث إلی دراسة مظاهر الطبيعة عندهم، كما أنّنا من خلال الموازنة والدراسة فـی مظاهر الطبيعة المشرقة بين *امرئ القيس وابن حمديس* نريـد أن نعـرّف هـذه المشـاهد، والمنهج المستَخدم فی هذه الدراسة هو المنهج الوصـفی - التحليلـی بالإتيـان الأنمـوذج الشعرية من ديوان *امرئ القيس وابن حمديس* لدراسة كيفية تطرق الشاعرين بالطبيعة.

إنّ الطبيعة من المصطلحات التی ترد فی عـالم الجمـال، لكنـه مصـطلح يحتـاج إلـی المادة التعريفية به، فالمعنی الأصلی للطبيعة هو كل ما خلق اللّه يدخل فی ذلک الإنسان نفسه، وما خلق اللّه يشمل السماوات والأرض والجبال، والأزهار والأشجار، والدواب والطيور والحشرات والأسماک والزواحف... فالطبيعة تعنـی شـيئاً لا حـدود لـه فـی إدراک الكـون، يحاول العلماء بتخصصاتهم المختلفة أن يشرحوا قوانينها ونظمها(بيومی،١٩٩٦م:٩١).

منذ القدم وصف الشاعر العربی الطبيعة وأحبهـا، ولكنهـا لـم تتميـز حـين ذاک كفـن شعری قائم بذاته، ومع هذا فقد بدأ علی وصفهم للطبيعة الشقف بهـا وبظواهرهـا، فوصـف الشاعر الليل وشبهه بموج البحر، وصف طوله وأنه لا يتزحزح وكأن نجومـه شـدت بحبـال متينة إلی متينة ووصف البرق والغيث وبدأت فتنة به، والوقوف علی الأطلال وهو كمظهـر من مظـاهر وصـف الطبيعـة الـذی يتجلـی فيـه البـث والشـكوی والتجـاوب مـع البيئـة الطبيعية(علی حسن،١٤٠٩ق:١٦٠). إذن شعر الطبيعة هو الشعر الذی يتخذ مـن عناصـر الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة مادته وموضوعاته.

أهمية البحث والهدف منه

تأتی اهمية البحث من أنّه يبحث فی المفارقة والمشابهة التـی كانـت بـين الشـاعرين *امرئ القيس وابن حمديس* فی العصرين المختلفين و يبيّن تلک المفارقـات والمشـابهات من خلال أشعارهما.

أما الهدف من البحث فهو تحديد المظاهر المشرقة التی قام بوصفها *امرؤ القـيس وابـن حمديس* فی الطبيعة رغم أنهما يعيشان فی العصرين المختلفين.

منهج البحث

يقوم البحث على المنهج الوصفى والتحليلى فمن خلال دراسة الأشعار وبتحليلها نصل إلى الإجابة عن السؤال الأساس.

الدراسات السابقة

كثير من الباحثين فى الأدب العربى قاموا بالدراسات عن الطبيعة ومظاهرها؛ كما وجدنا من خلال الدراسات السابقة حول الطبيعة الأندلسية مقالة تحت عنوان «الطبيعة الأندلسية وأثرها فى استثمار اللون الشعرى» من *م. لؤى صيهود فواز* الذى نشرها فى جامعة ديالى، كلية التربية الرياضية، العدد الثالث والسبعون ٢٠١٢، إنه قام بدراسة مضمون الشعر الأندلسى ودور الطبيعة الأندلسية وأثرها فى شعر الشاعرين. ثم حصلنا على مقالة أخرى فى مجلة «أبحاث البصرة»(العلوم الإنسانية) المجلد ٣٦، العدد ٢، السنة ٢٠١١ مقالةً تحت عنوان «وصف الطبيعة فى الشعر الأندلسى؛ قراءة وعرض» من *أ.م.د ستار جبار رزيج*.

وقد تطرق بعض الطلاب فى جامعة ام درمان الإسلامية كلية التربية- قسم اللغة العربية شعبة الدراسات الأدبية والنقدية إلى بحثٍ لنيل درجة الماجستير تحت عنوان «وصف الأزهار فى الشعر العربى حتى نهاية القرن السابع الهجرى» وفى هذه الرسالة قد درس الباحث شعر *ابن حمديس* من حيث صورة لطبيعة الأندلس وأيضا مقالة تحت عنوان «المطر وتجلياته فى شعر امرئ القيس وعبيد ابن الأبرص» انها فيها قد درس *على معدلى* عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فى فسا و*محبوبة محمدزاده شيرازى* ظاهرة المطر فى شعر الشاعرين. والمقالة الأخرى من *على مطشر نعيمة* و*خالد عبدالكاظم عذارى* من كلية التربية- جامعة البصرة تحت عنوان «صورة البحر ودلالاتها فى شعر ابن حمديس الصقلّى» اللذان يدرسان صورة البحر كظاهرة طبيعية فى شعر *ابن حمديس*.

امّا الدراسة هذه التى قمنا بها بصورة الموازنة بين الشاعرين *امرئ القيس* و*ابن حمديس* فى العصرين المختلفين فلم يقم إليها أحد فهذه الدراسة يفتح لنا بابا جديدا من هذه الناحية.

امرؤالقيس والطبيعة

كان شاعر الطبيعة، يتأملها ويبثها آلامه، وينسى عندها أشجانه ويهيم بها ويفتتن بآيات الجمال فيها، ثم يصورها كما تمثلتها نفسه، ها هى ذى أطلال تثير شجونه، وتلك ناقته وبعيره، وفرسه تمتلك عليه فؤاده و تلك الصحراء تستهويه ببرقها ومطرها وحيوانها ورمالها.

فقد عاش العربى فى جزيرة واسعة تختلف عليها الرمال والأنواء والرياح وتشتد عليه الطبيعة وتقسو وكان يتنقل فى سبيل العيش فيجتاز مسافات كبيرة ويخترق صحارى شاسعة وهناك صُورٌ رسمتها أخيلتهم لكل شئ وقع تحت بصرهم(سيد نوفل،١٩٩٣: ٥). فالطبيعة طبعت الشاعر الجاهلى بطابعها ووسمته فالرجل الذى يعيش فى الصحراء يألف منظرها ويأنس كواسرها وقد يعشق بعض حيواناتها فيجد منها أصدقاؤه يستدينها بصورته الذى يشبه صوتها ويتألفها بلونه الذى يقارب لونها.

الوصف فى العصر الجاهلى

لا شک أنّ الشاعر يستمد مواضيعه من طبيعة بيئته يتأثر بها ويؤثر فيها، محاولاً أبداً أن يعبر عن تأثيره. أضف إلى ذلک أنّ البدائى بطبيعة نفسية تميل به نزعة التقليد إلى نقل ما يراه حتى كأن شعره لوحات مقولة بدقة وبراعة عن البيئة التى يعيشها، فظهرت فى الشعر الجاهلى معالم الحياة الجاهلية فهو يضعنا وجهاً لوجه أمام عالمها كأننا نعيش فى قلبها ويكاد الجاهلى لا يدع حيواناً أو مشهد دون أن يصوره. لقد ذكر الفرس والأوابد والحمير والوحشية والعقاب والذئب فضلاً عن الصقر والقطاة كما أنه تصدى لوصف الحياة والأفاعى. أما الطبيعة الساكنة فقد عرض لها بقسم وافر من شعره، خاصة تلک المظاهر التى كان لها تأثير مباشر فى حياته كالطلل والصحراء والليل والمطر فضلاً عن الرياض. كما تصدى الجاهلى إلى وصف الحيوان رفيق سفر وشركاً فى الكفاح ضد مؤثرات الطبيعة وعواملها وكانت البقرة الوحشية غاية مباشرة(موافى،١٩٧٥م:١٠). ويقول *شوقى ضيف*: «وكانوا يصفون القضا والجواد والعصافير والنمل والعنكبوت والحمام ونواحه وما يهى فيهم شوق وشجى وكانوا يذكرون الغراب كثيراً ويتشاءمون به»(ضيف، ١٩٦٠م:٢١٦).

وصف المطر

وضع شعراء العرب فی وصف المطر وتشبیهاته أسساً وألموا بذکره فی أشعارهم إلماماً واسعاً ومن هؤلاء الشعراء *امرؤالقیس*، فامرؤالقیس ذلک الشاعر المبدع فقد أقام بنیاناً قویاً لصورة المطر، واکثر من وَصفه فی دیوانه وتغنی بصفاته حتی عدّه النقاد والشعراء «من أجود الذین وصفوا المطر»(العسکری،١٣٥٣ق:٣-۴؛ ابن سلام،١٩٧۴م:٩۴).

لقد ظهر حب *امرئ القیس* للطبیعة من خلال معلقته، فقد ذکر فیها أماکن کثیرة هی تلک الأماکن التی طوف فیها وعرفها فغدت معشوقاته جزءً منها، وانصهرت الطبیعة فی معلقته حساً وشعوراً مع صراعه النفسی فغدت کلها تعبر عن موقف موحد یقفه الشاعر تجاه الحیاة والکون، فهو عندما یصف المطر والسیل إنما یصف الصراع بین الحیاة المتمثلة بالمطر الباعثة علی الخصب و النماء، والموت المتمثل بالسیل المدمر الجارف الذی لا یبقی علی حیوان ولا شجر. وکأنه یقتلع الحیاة اقتلاعاً. وهو إذا ما یمسک ریشته ویرسم لنا منظر البرق والمطر إنما یعبر عن طبیعة واقعیة خبرها وعاش فیها وتملؤها جیداً:

أحار ترى برقاً کأن ومیضه — کلمع الیدین فی حبّی مکلکل
یضیء سناه أو مصابیح راهب — أهان السلیط بالذبال المفتل
قعدت له وصحبتی بین حامر — وبعد اکام بعدما متأمّل
وأضحی یسح الماء من کل فیقة — یکب علی الأدقان دوح الکنهبل

لقد اعتمدت المعلقة النزعة الحسیة والشعوریة فی تناولها الطبیعة والمرأة، فهو یعبر عن موقفه النفسی إزاء العالم الخارجی، فهو مبهور بقدر ما هو ملتذ بهذه الظواهر فهو یرید أن یمتلک هذا العالم فی نفسه لیستطیع بعدئذ تجسیده فی شعره، وهو یعرض لنا الطبیعة کما هی دون تعدیل أو تحویر من الخیال، بل یبدو وهو یصفها وکأنها بالنسبة إلیه تمثل إلهاً مزدوجاً من الخیر والشر، ففی الوقت الذی یصف لنا کل ما یمکن أن تعطیه هذه الطبیعة من خیر عمیم یعود لیصوّرها مزمجرة عاتیة تکاد تقضی علی الحیاة فیها، وهو إذ یصور لنا الطبیعة فی معلقته یلتصق بالواقع فیذکر لنا أسماء الأماکن، ولکنه لا یجمد علی الواقع الحر فی تصویره للطبیعة بل یصفها منعکسة فی زوایا نفسه.

ومرَّ علی القنان من نفیانه — فانزل منه العصم من کل موئل
وتیماء لم یترک بها جذع نخلة — ولا أطما إلّا مشیداً بجندل

كـأن أبّانـا فـي أفـانين ودقـة كبيـر أنـاس فـي بجـاد مزمّـل
كأن ذرى رأس المجيمر غـدوة من السيل والإغثـاء فلكـة مغـزل
كأن سـباعاً فيـه غرقـى عشـية بأرجائه القصوى أنـابيش عنصـل

فقد أعطى للأشياء العظيمة(ذرى رأس المجيمر، السباع) وهى غرقى تشبيهات لأشـياء صغيرة(فلكة مغزل، أنابيش عنصل) دلالة على صغر الأشياء العظيمة تجاه عظمـة الطبيعـة وقوتها وحركتها الدائبة. وما هذا الإحساس الفنى العظيم فى نفسه إلا موازنة بـين العظمـة فى الحياة وسرعة الزوال فى الموت، ولكن الحياة انتصرت فى النهاية:

وألقـى بصـحراء الغبـيط بعاعـه نزول اليمانى ذى العباب المحمل

فقد تصرفت المياه فى حزن مـن الأرض وتخلصـت الحيوانـات وانباتـات مـن خطرهـا، حاملة معها ما أفنته منها. ولكن الحياة باقية متجددة دائماً وسرعان ما عادت إلـى نشـوتها الأولى وكأن خطر السيل(الموت): لم يتهددها:

كـأن مكـاكى الجـواء غديـة صبحن سلافاً من رحيق مفلفل

لقد عادت دورة الحياة من جديد وانطلقت الطيور سعيدة منتشية بالصـحو بعـد المطـر وكأنها سكرى لشدة سعادتها.

وقد اعطى *امرؤالقيس* للمكان والزمان وجوداً فنياً يعادل وجودهما الواقعى فى تصـويره لطير المكاكى. فهذه الطيور النجدية تبكر فى الصباح تشنف الآذان باستقبالها لحيـاة يـوم جديد. كما أعطت المبالغة الفينة فى تصوير العصم وفزعها من جبروت السيل وقت العشاء تجسيداً لهذا الخوف، فقد أدركـت الوعـول المتشـبثة بالحيـاة أن خطـر المـوت يتهـددها فنزلت من جبل القنان لعلها تجد سبيلاً للخلاص من السيل فهى فى النهـار تصـارع مـن أجل النجاة ولكنها لم تستطع الإستمرار فى هذا الصراع عند العشية فيغرقهـا السـيل. وإذا كان السيل ينعكس فى نفس الشاعر ممثلاً للموت وجلاله بحيث يخيف السباع ويكـاد أن يغرق الجبال فإن الغيث يمثل الحياة وما فيها من خير وخصب. وقد يكوّن الغيـث السـيل وكأن الشاعر يقول لو لا الحياة لما وجد الموت. فالحياة دائماً متقدمـة والمـوت تـابع لهـا، فالحياة هى الأصل والموت تابع لهذا الأصل. ندرک من کل ذلـک أن الوحـدة الموضـوعية متوفرة فى المعلقة فهى تمثل موقف الشاعر من الصراع الأزلى فى نفس كـل إنسـان بـين الحياة والموت، وليست قطعاً متناثرة تتناول موضوعات مختلفة لا رابط بينها.

الحيوانات والمطر

إنّ المطر هو الوجه الساكن من الطبيعة الذى تغنى بـه الشـعراء علـى امتـداد العصـور واختلاف فتراتها الأدبية والسياسية وهناک وجه آخر للطبيعـة تربّـع علـى عـرش الـذاكرة الأدبية، وخط معالمه فى الإنتاج الشعرى، هـذا الوجـه، حـىّ نـابض يعـيش مـع الإنسـان ويتفاعل معه منذ بدايته. إنه هو الحيوان، هذا الكائن الحىّ الـذى ارتـبط مـع العربـى فـى صحرائه برباط قوى أساسه تبادل المنفعة، وإن كـان اعتمـاد أحـدهما علـى الآخـر يفـوق اعتماد الثانى. لذلک أحب الإنسان العربى الحيـوان، وانسـاب وصـفه علـى لسـانه انسـياب قطرات الطر التى عشقها. وحين صـور الشـعراء الحيـوان، وجَسّـموا معاناتـه مـع الطبيعـة الساكنة المتمثلة فى ظاهرة المطر، لم يقصـدوا فقـط بيـان مـدى التفاعـل بـين وجهـى الطبيعة المختلفين، ولكن أسقطوا معاناتهم فى هذه الحياة عليها ليرمزوا إلى مشاعر كثيرة تجتاحُ نفوسهم. وهنا نذكر بعض النماذج فى هذا الموضوع من أبيات الشاعر *امرئ القيس*.

امرؤالقيس هو الذى يشبه سرعة فرسه وانطلاقه خلف ثور الوحش بغيث العشى الغزيـر الأقهب الذى يميل لونه إلى الكدرة مع البياض ونعته أيضاً بالمتودق، والمتودق من الـودق وهو الشديد من المطر، ليوحد بينهما فى السرعة والإنطلاق:

وأدركهـــن ثانيـــا مـــن عنانـــه كغيث العشى الأقهب المتـودق
فصاد لنـا ثـوراً وعيـراً وخاضـباً عداءً ولـم ينضَـح بمـاءٍ فيعـرق

(امرؤالقيس، ١٩٨۴م:١٧۴)

شقائق النعمان

جاء فى محيط بأنه مفردة شقيق وأنه من أسماء الجنس وهو نوعان: كل واحـد منهمـا أحمر الزهر مقبع بنقط سوداء كبيرة غير أن زهر الواحد أرق من الآخر(ديـوان طرفـة بـن العبد،١٩٩۵م:۶۶) وفى نهاية الأرب أنها سميت بالشقائق لحمرتهـا، تشـبيهاً لهـا بشـقيقة البرق، والنعمان أسم والدم، وشقائقه قطعـه، فشـبهه حملاتهـا بحمـرة الـدم ويقـال إنمـا اضيفت الشقائق إلى النعمان لأنه حمى أرضا كثر فيها الزهر.

امرؤالقيس يصف نساء نواعم تشق اسنانهن بياض تفـى، يرتـدى ثيابـا مصـبوغة بلـون الزعفران وأخرى حمراء بلون الشقائق قائلاً:

نواعم تجلو عن متـون نقيـةٍ عبيرا وريطاً جاسداً وشـقائقا

(امرؤالقيس، ٢٠٠٠ :٨١)

ابن حمديس والطبيعة

إذا كانت الطبيعة بمعطياتها الجديدة من ريـاض وحـدائق ونـواعير وبـرک أثـرت فـی الشاعر العباسی وألهمته فأتی بالمعانی الجديدة والأساليب الرقيقة السهلة الرشيقة فالشاعر الأندلسی فاق أخيه فی المشرق تأثراً بالطبيعة وتنوع فی الموضوعات وتوسيع فکـان أکثـر براعةً وابتکارا ودقة وتصويرا. ومرجع ذلک طبيعة الأندلس هذه الطبيعة الرائعة الخلابة التی عبرت فيها الأرض عم نفسها أجمل تعبير، بما أخرجته علـی سـطحها ونثرتـه فـی شـتی أرجائها من طيب التربة وخصب الجناب، ومن الأنهار الغزار والعيـون العـذاب ومـن البحـر والرعد والسهل ومن الحقول والبساتين الحدائق والرياض، ومن الإعتدال الغالب فيهـا علـی الهواء والجو والنسيم وعلی الربيع والخريف والمشـتی و المصـيف ومـن المـدن الحصـينة والقلاع المنيعة ثم من ابيضاض ألوان الإنسان ونبل الأذهان وشهامة الطبـاع فهـذه البقعـة الکريمة من الأرض تأسر الطرف وتستهوی الأفئدة وتثير المشاعر والعواطف والخيال فکـان لها الأثر القوی فی رهافة حسهم وصفا أخيلتهم، فمن کل هذه المحاسن التـی حبـت بهـا الطبيعة بلاد الأندلس هی المصدر الأول، استلهم الشعراء واستمدوا منه الفيض الزاخر مـن أغانی الطبيعة(عتيق،لا تا:٢٩١).

فقد کـان وصـف الطبيعـة ابتـداء نوعـاً مـن الاحتـذاء لـبعض أشـعار المشـارقة لکـن الأندلسيين تميزوا بالإکثار من وصف الأزهار ولم يقتصر هذا الميل الحضـری للأزهـار بـل شمل الرسائل النثرية کما نظموا مقطوعات قصيرة فی صفوف الأزهار بعضها يمثل(بطـائق المهـــاواة) بـــين الأصـــدقاء ولـــيس لـــديهم غايـــة ســـوی وطلـــب الصـــورة المبتکرة(عباس،١٩٦٢م:١٩٣،١٩٧). فالبيئة هی من أعظم العوامل المؤثرة فی الأدب.

الوصف فی العصر الأندلسی

يجمع المؤرخون علی أن الأندلس کانت بلاداً خضـراء کثيـرة الخصـب والميـاه تشـبه دوحة غناء مترامية الأطراف وکما أن الخصب يتبع الغنی فإن الغنی يتيح الأزهـار. ونحـن

نعلم أن الوصف هو أسلوب من أساليب الشعر الترفى الذى لا يترزق فيه الشاعر، كما إنه لا يدافع به عن رأى أو جهة نظر بل يتروض بتقليد الطبيعة ويلهو بتصويرها ولقد كان طبيعياً أن ينبرى اولئک الشعراء بوصف متعتهم وما يحيط بهم من رياض وبساتين ومجالس لهو وما أشبه ذلک(الحاوى،١٩٨٧م:٦-٨).

وساعدت الطبيعة الفاتنة على نضوج الشعر وحلاوته وكان لمجالس الأنس والبهجة الأثر الكبير فى تنوع أغراض الشعر وخاصة الوصف. فوصف الشعراء الطبيعة الفاتنة كما وصفوا الحدائق والقصور والأبنية وما بها من صور وأشكال وتماثيل وبرک، ووصفوا مجالس الشرب ووصفوا الشموع والكنائس والأديرة وأكثروا من وصف الأساطيل البحرية، وحتى ألوان الحياة العامة وما فيها من ظواهر دقيقة وحشرات وبراغيث إلى غير ذلک من أغراض الوصف المتعددة الجوانب المترامية الأطراف(الشكعة،١٩٨٣م: ٢٤٧).

لقد استحوذت الطبيعة على كيان *ابن حمديس*، فقد كانت تحيطه كغيره من الشعراء من كل جانب برياضها الغناء ومناظرها، فكثيراً ما تقع عيناه على البهجة والتناسق، وتطالعه الخضرة والمياه العذبة، كما كان يعطره أريج الأزهار والورود، تثمله نسمات الحقول والمروج، لذا فقد رأينا الطبيعة فى مدحه.

وصف الأزهار فى شعر ابن حمديس

كانت الطبيعة اهم ما جذب انظار الوصافين، وأكثر الاندلسيون فى وصف الأزهار، كما فعل شعراء الطبيعة فى حلب، فوصفوا الورود والنرجس والشقائق والنيلوفر، والياسمين والقرنفل وغيرها مما وقعت عليه عيونهم(ن.م: ٢٧٧). فنأتى على موصوفات *ابن حمديس* من الطبيعة الصامتة كنماذج:

الزهريات

إنّ *ابن حمديس* ينظر إلى الشقائق متأملاً وعندما رأى الندى يتساقط بين أوراقها يقول:

نظرتُ إلى حَسن الرياضِ وغيمُها ... جرى دَمعُهُ منهنّ فى أعينِ الزّهرِ
فلم تَرَ عَينى بينها كشقائقٍ ... تُبَلبِلُها الأرواحُ فى القضبِ الخضرِ

كما مَشَطَت غِيدُ القيان شعورَها وقامت لرقصٍ فی غلائلها الحُمر

(ابن حمديس،١٩٢: ١٩٦٠)

فالشاعر فی هذه الأبيات يشبه زهرات الشقائق لحظة سقوط الماء عليها بالقيان اللائی يمشطن شعورهن، ثم يرقصن فی غلائل حمراء. كما يصور الندی الذی يجری علی الأوراق بالدموع التی تجری علی الخد.

الأَقحوان

للأقحوان أنواع كثيرة، الواحدة أقحوانة، ويقال أقحوان وقُحوان وأقاح وأقاحين، ويقال أقحوانين، وقُيّد منها سبعة وهی أكثر من هذا.

جمعت أنواعها من طريق شبه الزهر وتقاربها فی القُوی وإن اختلف شكل الورق. واختلف فيه المتأخرون، وبالجملة هو نوع من البابونج عند البعض، وعند البعض البُبُليُه، وعند أئمة الرواه البابونج بعينه.

جاء ذكر الأقحوان فی ديوان *ابن حمديس* مرتبطاً بالغزل فی معظم مواقعه. وتعدد ذكره بين الأفراد والجمع والتعريف فی التنكير، وكأن الشاعر يوظفه توظيفاً جمالياً خاصاً بالمرأة وخاصة أن الشعراء يشبهون شفاهها بالأقحوان يقول *ابن حمديس*:

وما روضةٌ حیَّ ثری أقحوانها يُضاحكُها فی الغيمِ سنّ من الضّحّ

ويقول متغزلاً:

تَمشی وسُكُر التيه فی عَطفِها يُميلُ منها باعتدالِ القوامِ

يا من رأی فی غُصن روضة يُسمعُ منها للأقاحی كلام

(ن.م: ۴۵۹)

فالشاعر يتغزل ويشبه الفتاة بالأقاحی.

الحديقة

حدق: حدق به الشئ وأحدق: استدار، وكل شئ استدار بشئ وأحاط به، فقد أحدق به، ونقول عليه شامة سوداء قد أحدق بها بياض. والحديقة من الرياض: كل أرض استدارت وأحدق بها حاجز أو أرض مرتفعة، وقيل الحديقة كل أرض ذات شجر مثمر ونخل. وقيل

الحديقة البستان، وخص بعضهم به الجنة من النخل والعنب. وقيل الحديقة: حفـرة تكـون فی الوادی تحبس الماء. وكل وطئ يحبس الماء فی الوادی وإن لم يكن المـاء فـی بطنـه فهو حديقة.

وقد استخدم *ابن حمديس* هذه اللفظة جمعا ومفـردا فـی بضـعة عشـر موقعـا بعضـها استخداما حقيقيا والآخر مجازيا. يقول:

يُريک رؤوساً منهُ فی جسمِ حيّـةٍ سَعَت من حياةٍ فی حدائقَهِ الخضـرِ

(م.س:١٨٧)

ويقول مستخدما اللفظة على التشبيه:

حديقةُ نَورٍ دامعِ العـينِ ضـاحکٍ كنشوانَ ذَی جيدٍ من السُّكرِ مائـل

(م.ن: ٣٩٥)

الرَّيحان

نبات ذو رائحة جميلة عطرها فواح، وخضرتها دائمة عبقت بأريجها قصائد *ابن حمديس* حتی ملأ شذاها ألفاظه وديوانه، تلک البيئة الأخاذة اختلفت مواقعهـا فـی أغـراض الشـاعر وموضوعاته، إلا أنها كثيرة الورود فی الوصف والغزل والمدح وشرب الخمرة ومجالسها التـی جاء وصف الطبيعة متمماً لصورتها، فكان الريحان وغيره من الأزهـار تـأتلق فرحـاً وسـروراً لفرح الشاعر وسرورَه، بل وتشاركه اللـذة فتصـطهج متراقصـة بأغصـانها وقـد مـلأ عبيرهـا الأنفاس. ومن جميل الصور التی جاءت الريحانة لتزيدها جمالاً قول الشاعر:

وَرَيحانـــةٍ أُمَّهـــا كرمـــة تَنَفّس فی كفّ غُصـنَ رَطَيـبِ

مُعتّقــةٌ فــی يَــدَی راهــبٍ علــی دنّهــا خَتمُــهُ بالصّــليبِ

(م.س:١٢٥)

حيث شبه الشاعر الخمرة برائحتها ونشوتها بالريحانة ذات الرائحة العطرة. فالشاعر يربط بين ما تحدثه نشوة الخمرة فی نفسه وبين رائحـة الريحانـة الزكيـة التـی عبـق بهـا أنـف الشاعر. كما أن الشاعر يشبه الريحانـة بالفتـاة الجميلـة والكرمـة هـی أمهـا وهـی تـنفس محمولة على أيدی قيان يحركها كما تتحرک الأغصان الغضّة. وبالتالی فالشاعر يولـد هـذه الدلالة وهذه الصورة وهو يتلذذ بشرب الخمر فی مجلس سمر.

لقد جاء ذكر الريحان فی دیوان *ابن حمدیس* مقروناً بقصائد المدح والخمر والغـزل ولا یذکر الشاعر فی غیر هذه المواقع ومن ذلک قوله:

وفـی کَبَـدی جُـرحُ لحـظٍ علیـلٍ — وفـی عَضُـدی عـضّ ثغـرٍ شَـنیبِ
وریحانـــةٍ أُمهـــا کرمـــة — تَـنَفسّ فـی کـفِّ غُصـنٍ رطیـبِ
مُعَتَّقـــةٌ فـــی یَـــدَی راهـــبٍ — علـــی دنّهـــا خَتمُـــه بالصَّـــلیبِ

(م.س:١٢)

الزَّهر

زهر: الزَّهرة: نور کلّ نبات، والجمع زَهرٌ، وخص بعضهم به الأبیض، وزهـرُ النبـت: نـورُه. کذلک الزهرةُ، بالتحریک، وقال الزُهرةُ البیاض عن *یعقوب*، ویُقال أزهرُ بـین الزُّهـرةِ، وهـو بیاضُ عِتق قال شمِر: الأزهَرُ من الرجال الأبیضُ العتیقُ البیاضِ، النیِّرُ الحَسَنُ وهو أحسـن البیاض کأنَّ له بریقاً ونوراً.

یزهر کما یُزهرُ النجم والسراج، *ابن الأعرابی*: النّورُ الأبیض والزّهرُ الأصـغر، وذلـک لأنـه یبیّض ثم یصغر، والجمع أزهار وأزاهیر جمـع الجمـع، وقـد أزهـر الشـجر والنبـات. وقـال *أبوحنیفة*: أزهر النبتُ، بالألف، إذا نوّر وظهر زهـره، وزهیـرَ بغیـر ألـف، إذا حَسُـنَ. وأزهـار النبات، کالزهرَّ، قال *ابن سیدة*: وجعله ابـن جنـی رباعیـاً، وشـجرة مزهـرة ونبـات مزهِـرٌ، والزّاهر: الحَسنُ من النبات(ابن منظور،لاتا:٩٨).

نستخلص من هذه المعانی أن الزهر یعنی الحیاة والحُسن والبهجة والجمـال. لـذا فقـد وظّفه الشاعر فی دیوانـه توظیفـاً جمـیلاً. فـذکر بمفـرده وجمعـه، وذکـره بـالتنکیر تـارة والتعریف تارة أخری. ومن ذلک قول *ابن حمدیس* فی قصیدة مدح:

ذو سجایا فـی المعـالی خُلقـت — للوغی والسلم من بـأسِ وجـود
وأنـــاةٍ أُرســـیت فـــی خُلُـــقٍ — کنظیرِ الزهر فی الرّوضِ المَجود

(ابن حمدیس:١٥٦)

فالشاعر یشبه صفات الممدوح بالزهر فی الروض. ویقول فی قصیدة یمدح فیهـا *أحمـد بن عبد العزیز بن خراسان*:

والصبحُ یلقطُ من جُمَانِ نجومه — مـا کـان فـی الآفـاقِ ذا تبدیـد

زُهــرٌ خَبَــت أنوارُهــا فكأنّهــا سُرُجُ المَشاکی عولجتِ بخُمُود
کــأزاهر النّــوار تَقطُفُهــا مهــا من کـلّ مخضّـرِ البقـاعِ مَجُـود
(م.س:١٥۶)

فهو يستخدم الأزاهير ليدل به على الأزهار وأريجها تارة ويستخدمها مرة أخـرى ليـدل بها على حسناوات النساء من الراقصات والقيان والساقيات الخمر لهم فی المجلس.

ومن الصور الجميلة التی رسمها *ابن حمديس* للزهر، تلک التـی شـبه فيهـا تضـحيات أهل سرقوسة(مدينة المغتصبة) وقتالهم ودمائهم التی أريق دفاعاً عنها. بالزهور التی تهيـؤ للثمر يعنی أن تضحياتهم هذه ودماءهم المراقة تمهد وتبشر بقدوم النصر يقول:

رعی وَرَقُ البيضِ الذی زهرُهُ دمٌ بهم ورقاً عن زهرة الـروضُ يَبتَسـمُ
جَبَابِرةٌ فی الرَوع تَعدو جيـادُهُم بهم فوقَ مـا سـحّ الوشـيجُ المُقَـوَّمُ
(م.س:۴١٢)

وقد أبدع فی ربطه بين الزهور التی تشرئب للتفتح لتخرج الثمار وبين أهـل سرقوسـة وتضحياتهم التی تقدم للنصر وهذا توكيد وابتكار جديد فی توظيف الزهور التی ترمز أصلاً إلی السرور والإرتياح الفرح.

السّوسَن

السّوسَن: نبت، أعجمی معرّب، وهو معـروف وأنواعـه كثيـرة، فمنـه الأبـيض والأحمـر، والأصفر، والأزرق والأسمانجوفی، ومنه برّی وبستانی ومائی وجبلی ورملـی. لـم يـرد ذكـر السوسن فی ديوان *ابن حمديس* كثيراً، فلم يتجاوز مـرتين، إلا أنهـا حملـت فـی طياتهـا دلالات جميلة، فقد وظّفها الشاعر توظيفا رائعاً يقول فی قصيدة مدح يـذكر فيهـا شـجاعة الممدوح وقوته وسطوته علی أعدائه. ويقول:

بَحــرٌ إذا مــا القــرنُ رام عبــورَهُ لم يَلقَ فيه إلـی السَّـلامةِ مَعبّـرا
عَطِبَت بـه مُهَـجُ الجبـابرة الألـی بَصرُوا بكسری فی الزمان وقَيصـرا
رسبت بلجّته النفـوسُ لـو طَفَـت لَحَسـبتُهُ قَبـلَ القيامـة محشَـرا
وَرَدَ النجيــعَ وَسَوسَــنُ جَنَباتــهِ ثــمّ اســتقلَّ بهــنّ وَرداً أحمَــرا
(ن.م: ٢٣۵)

الغابَة

الغابة: الأجمة التی طالت ولها أطراف مرتفعة باسقة یقال لیث غابة. الغاب: الآجام والغابة: الأجمة والغابة الأجمة من القصب وقد جعلت جماعة الشجر لأنه مأخوذ من الغیابة.

یقول *ابن حمدیس*:

ککنـــاسٍ بَغَمَـــت غَزلانُـــهُ من زئیرٍ راعَها مِن أُسدِ غابِ

(ن.م:۶۵)

النَیلُوفَر

هو أنواع کثیرة فمنه أبیض الزهر وأصفرُ وأحمـرُ وازرقُ، ومنـه بسـتانیٌّ وبـری ونهـری. فالبستانی بصل فی قدر تصل الأکل وأعظم، ذو طاقات کطاقات ثمر الصنوبر الکبار.

ومن النیلوفر ثلاثة أصنافٍ تعرف باللیلة والسامریة، أحدها له لون أصفر ذهبی، فی لون النّرجس الأصفر، وآخر أزرق اللون وآخر أحمر، وأصول هذه الأنواع الثلاثـة بَصَـل. منابتهـا الرمال وبقرب البحر. ولیس یظهر نباتها بالنهار البتّة وباللیل تطلع وتنمو إلی أن تزهـر ثـم تبرز وتنحطم عند تمام مدتها، وهی فی هذا کله تطلع إذا أقبل الظلام وتغیبُ فی التـراب إذا أقبل ضوء النهار.

یقول *ابن حمدیس* فی النیلوفر:

أشرب علی برکة نیلـوفرٍ مُحمـرّةِ النّـوارِ خَضـراء

کأنّمـا أزهارُهـا أخرجـت ألسـنةَ النـارِ مـنَ المـاءِ

(م.س:۵)

النّرجس

من الریاحین معروف وهو دخیل. نـرجس أحسـن إذا أعـرب، وذکـره *ابـن سـیده* فـی الرباعی بالکسر، وذکره فی الثلاثی فی ترجمة رجس.

ذکر *دیوسقوریدیس* و*جالینوس* هذا النبات ویسمی بالیونانیة نرکسـوس، صـفرته شـبه لون النیرون، وبالسریانیة مریث، وبالعربیة نـرجس وباللطینیـة بنرجسـینوس، وبالعجمیـة نبقیرس وفُلُور أوُر، أی نوار الذهب.

على الرغم من أن هذا النبات ليس عربى الأصل والنشأة إلا أن *ابن حمديس* يذكره فى ديوانه وكأنه يشير إلى غربته عن بلاده، يذكر النرجس بالتنكير والتعريف فيقول:

وَلَيلٍ هَوَت فيه نُجومَ كأنَّها يعاليلُ بحرٍ مُضمِرَ الجزرِ فى المدِّ
كأنَّ الثريا فيه باقةُ نَرجسٍ من الشَّرقِ يُهديها إلى مَغرِبِ مُهد

(ن.م: ١٥٠)

ويقول:

أذابلُ النَّرجِس فى مقلتيک أم ناضرُ الوردِ على وجنتيک

(ن.س: ٣٤٥)

لقد جاء ذكر النرجس أقل من ذكر الورد بكثير فى ديوان *ابن حمديس*، فلم يتجاوز عشر مرات وردت فيها هذه اللفظة جاء فى أكثرها نكرة وجميعاً، على غير ذكر الورد الذى جاء عشرات مرات. وقد كان ذكر النرجس مرتبط إلى حد بعيد بذكر المرأة والتغزل فيها فى ديوان شاعرنا.

و مما يؤكد اقتران ذكر النرجس بذكر المرأة والتغزل فيها قول الشاعر:

تَزرَّرُ صَوناً عليها الخدورَ فتبكى عيونَ المَها الكُنّس
وقد زارَ عَذبَ اللمى فى الأقاح أجاجُ الدُّموع من النّرجسِ

(م.س:٢٧٨)

فهو يصورها وقد أغلقت على خيمتها وأخذت تبكى وشبه عينيها بالنرجس وشبه الشفاه بالأقاحى، فالشاعر يذكر النرجس ويذكر الأقاح ويحملها دلالة المرأة وتشبيه العيون بالنرجس صورة مبتكرة عند الأندلسيين.

المائيات

لقد جاء ذكر المياه عند *ابن حمديس* ممتزجاً مع مشاعره فى معظم قصائده، وقد لا نبالغ إن قلنا إن ذكر الماء أو ما يدل عليه كان فى كل صفحة من صفحات ديوانه. إن ألفاظ الماء فى ديوان *ابن حمديس* كثيرة جداً، و قد جاءت تحمل دلالات كثيرة ومتعددة أيضاً. لقد جمع *ابن حمديس* فى استخدامه للماء وألفاظه بين الاستخدامين المجازى والحقيقى.

فهذا *ابن حمدیس* ینظر إلی الشقائق متأملاً، وعندما رأی الندی یتساقط بین أوراقها یقول:

نَظَرتُ إلی حَسنَ الریاضِ و غیمُها   جری دَمعُهُ منهنّ فی أعینِ الزّهرِ
فلم تَرَ عینی بینها کشقائقٍ   تُبَلبِلُها الأرواحُ فی القضبِ الخضر
کما مَشَطَت غِیدُ القیان شعورَها   وقامت لرقصٍ فی غلائلها الحُمر

(ن.م:۱۹۲)

فالشاعر فی هذه الأبیات یشبه زهرات الشقائق لحظة سقوط الماء علیها بالقیان اللائی یمشطن شعورهن، ثم یرقصن فی غلائل حمراء. کما یصور الندی یجری علی الأوراق بالدموع التی تجری علی الخد.

البحر

البحر فی کلام العرب: الشق(ابن منظور، لا تا: ۳۲۳/۱) وکلمة البحر تشترک فی معنی لغوی واحد هو السعة والکثرة. وقد استخدم *ابن حمدیس* هذه اللفظة بمعانیها المختلفة عشرات المرات، إضافة إلی أنه قد أفرد فی دیوانه مقطوعات یصف منها البحر. وفیما یلی نماذج توضح ذلک.

و من الإستخدام لکلمة البحر فی شعر *ابن حمدیس*:

وراءکَ یا بحرُ لی جنةٌ   لبستُ النعیمَ بها لا الشقاءَ

ومن ذلک ایضاً:

أراکَ رکبتَ فی الاهوالِ بحراً   عظیماً لیسَ یُؤمن من خُطوبه
واصعب مِن رکوبِ البحرِ عندی   امورٌ ألجاتکَ إلی رُکوبه

(ابن حمدیس، ۱۹۶۰: ۸)

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

النَّهر

النهر واحد الأنهار، وفی المحکم: النهر والنهر من مجاری المیاه، والجمع أنهار ونهر ونهور، وفی الحدیث نهران کافران، فالمؤمنان النیل والفرات، والکافران دجلة ونهر بلخ ونهر

الماء إذا جرى من الأرض وجعل لنفسه نهرا، نهرت النهر: حفرته. ونهر النهر ينهره: اجراه واستنهر النهر إذا أخذ لمجراه موضعا مكينا(ابن منظور، لا تا: ١٩٨).

وقد استخدم *ابن حمديس* هذه اللفظة مفردا وجمعا فی بضعة مواقع فی ديوانه ومن الإستخدام الحقيقی لهذه اللفظة:

لأصبحتَ مثلَ البحرِ يَزخَرُ وَحدَه وإن كثُر الأنهارِ من عن جوانبهِ

(ابن حمديس، ١٩٦٠: ٢٧)

اما الإستخدام المجازی فيتضح فی قوله:

وتحسبَ منه الريحَ تغدو بِضَيغَمِ على جِسمِهِ نِهیٌ وفی يده نَهر

(م.ن:١٨٣)

نتيجة البحث

فمن خلال هذه الدراسة الشعرية يثبت على القارئ كان شاعرنا العربی القديم شاعر الطبيعة، يتأملها ويبثها آلامه وينسى عندها أشجانه ويهيم بها ويفتتن بآيات الجمال فيها. فقد عاش العربی فی جزيرة واسعة تختلف عليها الرمال والأنواء والرياح وتشتد عليه الطبيعة وتقسو وكان ينتقل فی سبيل العيش فيجتاز مسافات كبيرة ويخترق صحاری شاسعة وهناک صورٌ رسمتها أخيلتهم لكل شئ وقع تحت بصرهم. فالطبيعة طبعت الشاعر الجاهلی بطابعها والشاعر الأندلسی فاق أخيه فی المشرق تأثراً بالطبيعة ومرجع ذلک طبيعة الأندلس هذه الطبيعة الرائعة الخلابة التی عبرت فيها الأرض عم نفسها أجمل تعبير وتميزوا بالإكثار من وصف الأزهار وبصفة عامة الطبيعة التی أظهر الشاعران *امرؤالقيس وابن حمديس* فی شعرهما وتطرقا إليها كانت مظاهراً أدركهما فی الواقع وأثّر عليهما ودفعهما بإظهار أحاسيسهما.

المصادر والمراجع

ابن حمديس الصقلی. ١٩٦٠م، **ديوان ابن حمديس**، تحقيق الدكتور محمد عباس، بيروت: دار صادر.

امرؤالقيس، ابن حجر الكندی. ٢٠٠٤م، **ديوان**، اعتنى به وشرحه عبدالرحمن المصطاوی، ط٢، بيروت: دار المعرفة.

بيومی، محمد. ١٩٩٦م، **تربية الذوق الجمالی**، مصر: دار المعارف.

الجمحی، محمد بن سلام. لا تا، **طبقات فحول الشعراء**، شرح محمود شاكر، القاهرة: مطبعة المدنی.

الحاوی، ايليا. ١٩٨٧م، **فن الوصف وتطوره فی الشعر العربی**، ط٢، بيروت: منشورات دار الكتاب اللبنانی.

رشدی، علی حسن. ١٩٨٨م، **الطبيعة فی العصر العباسی الثانی**، بيروت: مؤسسة الرسالة- دار عمار.

سيد نوفل. ١٩٩٣م، **الطبيعة فی الأدب العربی**، ط١، مصر: دار المعارف.

الشكعة، مصطفی. لا تا، **الأدب الأندلسی موضوعاته وفنونه**، بيروت: دار العلم للملايين.

ضيف، شوقی.١٩٧٤م، **تاريخ الأدب العربی: العصر الجاهلی**، ط١، مصر: دار المعارف.

طرفة بن العبد. ١٩٩٥م، **الديوان**، شرح وتحقيق محمد محمود، ط١، بيروت: دار الفكر اللبنانی.

عتيق، عبدالعزيز. لا تا، **الأدب العربی فی الأندلس**، بيروت: دار النهضة العربية.

عيسی، فوزی سعد. لا تا، **الشعر العربی فی صقلية**، الاسكندرية: المعارف.

موافی، عثمان. ١٩٧٥م، **من قضايا الشعر والنثر فی النقد الأدبی القديم**، الاسكندرية: مؤسسة الثقافية الجامعية.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی